

البحاث

الأسس الفلسفية للمذهب المادى عرض ونقض

د . جعفر شيخ ادريس *

مقدمة

فى العالم الاسلامى اليوم دعوة الى التأسى بالغرب لا فى تقدمه العلمى أو الصناعى فحسب ولكن فى مناهجه الفكرية وأساليب حياته أيضا . وأصحاب هذه الدعوة لا يريدوننا بالطبع أن نقلد الغرب فى مسيحيته أو يهوديته أو خرافاته اليونانية وإنما يريدون لنا أن نأخذ عنه ما يعتبرونه سبب تقدمه العلمى وتفوقه . ولكن ما كل من يدعو هذه الدعوة بقادر على أن يقدم لنا فكرة متكاملة متناسقة عما يعتبره المنهج الفكرى أو المذهب الحياتى الذى أدى الى التفوق الغربى والذى يريد لنا أن نأخذه عنهم . ولذلك فإن الكثيرين منهم يكتفون بترديد بعض الشعارات . فالغرب تفوق بزعمهم لأخذه بمبدأ فصل الدين عن الدولة ، أو لإطلاقه الحرية للإنسان يفكر ويعبر ويسلك كيف شاء ، أو لاتباعه المنهج التحليلى ، أو لقدرته على التجربة أو لتركيزه على الواقع المشاهد ، بينما نحن لا نزال نعانى من عقابيل المنهج التكاملى ، والعجز عن التجريد ، والاستغراق فى الغيبيات ، وتقييد الفكر والتعبير والسلوك بقيود الدين والخلق والاعراف . . . الخ .

* أستاذ الفلسفة الإسلامية جامعة الرياض .

وأما حين يحاولون تقديم فكرة متكاملة فانهم انما يدعون الى الاخذ
بالمذهب المادى فى صورة من صورته المتعددة .

فهل يصلح هذا المذهب بديلا عن الدين الاسلامى ؟ وهل يفى بحاجات
البشر وهل يحقق لهم السعادة التى ينشدون ؟

لكى نجيب على هذه الاسئلة ينبغى أن نعرف أولا وبشيء من التفصيل
ما هى العقائد الاساسية التى يقوم عليها هذا المذهب ثم ننظر فيها
لنتساءل اهي حقائق تدركها الحواس أم هى نتائج تستخلصها العقول ؟
أهى متناسقة فيما بينها ؟ أهى موافقة لحقائق العلم ومناهجه ؟ أهى كافية
للتدليل على بطلان الدين ؟

اسس المذهب المادى :

فيما يلى نحاول أن نعدد العقائد الاساسية التى يدين بها الماديون
ولكن ينبغى أن نذكر أنه اذا كان بعضهم يؤمن بكل هذه العقائد فما
كلهم يفعل ذلك ، فالبعض منهم يؤمن ببعضها وينكر أو يتوقف فى
الايمان بساثرها .

والعقائد هى :

اولا : لا موجود الا المادة .

ثانيا : المادة أزلية لم تخلق ولا تفتنى .

ثالثا : كل ما فى الوجود من اشياء تكونت بمحض المصادفة من حركات
هذه المادة الأزلية .

رابعا : واذن فلا اله ولا ملائكة ولا جن واذن فالاديان كلها باطلة

خامسا : واذن فلا بعث ولا نشور ولا حساب ولا جزاء .

سادسا : طبيعة كل شئ وخصائصه انما هى نتيجة تركيب معين
لذرات هذه المادة .

سابعا : كل ما نسميه عقلا أو نفسا أو روحا أو فكرا انما هو
شكل من أشكال المادة

ثامنا : تشكيلات المادة وحركاتها خاضعة لقوانين طبيعية لا تتخلف ،
وبها يمكن أن نفسر كل الظواهر الطبيعية ، والحالات النفسية ،
والحوادث التاريخية . من غير حاجة الى الايمان بقوة وراء الكون تحفظه
وتسيره .

تاسعا : المادية مذهب علمي وليس مجرد ايدولوجية كسائر
الايدولوجيات والفلسفات والاديان .

عاشرا : الانسان سيد نفسه ومالك مصيره فهو وحده المسئول عن
أن يشرع لنفسه في السياسة والاقتصاد والاجتماع وسائر نواحي حياته .
وهذا هو المقصود بعبارة Humanism « الانسية » .

مناقشة هذه الاسس :

الاساس الاول :

عبارة (لا موجود الا المادة) التي تكاد أن تكون المبدأ المشترك بين
كل الماديين - ما الدليل عليها ؟

ا - اهي نتيجة بحث علمي استقرائي للكون أثبت أنه لا يوجد فيه
الا ما هو مادي ؟

كلا فان شخصا يلتزم بالمنهج العلمي لا يمكن أن يدعي هذه الدعوى
العريضة فما أحد يستطيع أن يستغرق ببحثه وتفتيشه الكون كله ليصل
الى مثل هذه النتيجة .

ب - قد يقول المادي أن ما ذكرتموه (في الفقرة السابقة) حجج
ولكن الذي أعنيه أنا بهذه العبارة هو أنني وغيري من العلماء والماديين
فتشنا بقدر طاقتنا ووسعنا فلم نجد في الكون شيئا غير مادي . ولكن
إذا كان هذا ما يمتقده المادي فكان ينبغي أن يكون دقيقا فيعدل العبارة
لتصير (نحن لا نعرف موجودا غير مادي) أما أن يستنتج من عدم علمه
بوجود غير المادة أنه غير موجود فهو استنتاج باطل ، وقديما قال علماؤنا
« عدم العلم ليس علما بالعدم » .

ج - وأما إذا عدل عبارته كما اقترحنا لتصير « نحن لا نعرف موجودا
غير مادي » فانه يهدم الاساس الذي تقوم عليه المادية إذ أن العبارة
الجديدة لا تنفي وجود أشياء غير مادية بل تترك الباب مفتوحا للبحث
عنها وفيها .

د - قد يقول المادي أن من الاسباب القوية لايماني بالعبارة في شكلها
الاصلي أن الذين يؤمنون بموجودات غير مادية لم يقلحوا في التدليل
العقلي أو العلمي على وجودها وأنا لا أستطيع أن أومن بشيء لا دليل لي
على وجوده من عقل أو حواس . ونقول له إذا كان من تعرفه من المؤمنين
في بيئتك مؤمنين بغيب لا يملكون وسائل اثباته العقلية أو العلمية فما
كل المؤمنين بالغيب كذلك ، وما كل الاديان تستوى في ذلك ، فنحن
ندين بدين يقيم الأدلة العقلية القاطعة على صدق مبادئه الاساسية .

ثم أن هنالك مسألة في غاية الأهمية فالذى يقول عن شيء ما أنه موجود أو غير موجود أو أنه لا موجود غيره ينبغي أن يكون لديه تصور معين له بحيث نستطيع أن نتثبت بالبحث الحسى أو العقل من صحة دعواه . الماديون يقولون أنه لا موجود إلا المادة ولكن ما هى هذه المادة التى لا موجود غيرها ؟ لقد ظل الماديون كما سنرى يتراجعون القهقرى فى تصورهم أو تعريفهم للمادة . فكلما قالوا أنها كذا وكذا ثبت أن ما وصفوه ليس بالموجود الوحيد . قالوا أولا كما يقول عوامهم اليوم أن المادى هو الذى تدركه الحواس وما لا تدركه فهو غير مادى وبالتالي غير موجود وأرادوا بذلك أن يقولوا إن الله تعالى وملائكته لا يدركون بهذه الصفة فهم غير موجودين ولكن تصورهم هذا لا ينفى وجود الله تعالى فحسب بل ينفى معه وجود الفكر والعقل والمشاعر الخ وهى أشياء يدركها كل منا ويدرك أنها ليست مادية بهذا المعنى .

لقد حاول الماديون السابقون أن يجدوا مبررات تخرجهم من هذا المأزق فحاولوا أن يقولوا أن الفكر صورة من صور المادة ، ولكن هذا أيضا لا يجدى لأنه إذا كان الفكر وهو شيء غير محسوس صورة من صور المادة ، واذن فالمادة يمكن أن تكون غير محسوسة . وقال آخرون أن الفكر أثر من آثارها وليس صورة من صورها ولكن هذا أيضا لا يجدى لأنه يعنى أن فى الوجود أشياء غير مادية ولن يغير من الحقيقة شيئا كونها أثرا من آثار المادة . المهم أن فى الوجود أشياء غير مادية وهذا متناقض مع الأساس الأول للمذهب المادى الذى يقول بأنه لا موجود إلا المادة .

ولكن العلم الحديث زاد من إحراج الماديين . فالعلماء يتعاملون مع أشياء لا يصدق عليها وصف المادية بذلك المفهوم الذى يعتبر المادى هو الذى تدركه الحواس . إن الذرات وجزئياتها لا تدرك بالحواس وبعضها كما سنرى لا كتلة له . فهل نقول أن العلم يتعامل مع كائنات وهمية ؟ هذه نتيجة لا يرتضيها الماديون لأن مذهبهم يعتمد على دعوى التوافق بينه وبين العلم . فكيف الخروج من هذا المأزق إذن . اقترح لينين تعريفا جديدا للمادة يواكب فى رأيه كل تطور علمي . المادى فى رأيه هو كل شيء يوجد وجودا موضوعيا أى أنه الشيء الذى لا يعتمد فى وجوده على عقلمنا أو على وعينا به .

هذا التعريف اللينينى للمادة يخرج الماديين فعلا من مأزق مخالفة العلم ولكنه يوقعهم فى مأزق موافقة الدين . أنهم كما رأينا يريدون أن يعرفوا المادة تعريفا تكون نتيجته أن الله تعالى ليس موجودا ولذلك قالوا أولا أن المادى هو المحسوس وبما أن الله غير محسوس فهو غير موجود . ولكن هذا التعريف أخرج - كما رأينا - من دائرة الموجودات أشياء يتعامل معها العلم . ثم جاء تعريف لينين ليدخل هذه الأشياء العلمية

ولكنه أدخل معها - من غير أن يشعر - أشياء دينية . كيف ؟ ان الله تعالى لا يعتمد في وجوده على وعينا به . هذه من البدائنه الدينية ، فالله هو خالق الانسان وخالق وعيه وكان الله تعالى ولم يكن انسان . ويبقى وكل من عليها فان ، فاذن وجوده لا يعتمد على شيء سواء فضلا عن أن يعتمد على وعينا به . فتعريف لينين للمادى يدخل فيه وجود الله تعالى . لعل السبب في أن لينين لم يلتفت الى المأزق الذى وقع فيه وهو اعتقاده بأن كل من لا ينتمى الى المذهب المادى فهو مثالى والمثالى هو الشخص الذى يعتقد بأن الوجود الحقيقى للانسان انما هو وجود عقلى وأن وجوده الموضوعى الخارجى تابع لهذا الذهني ومعتمد عليه . ولكن هذا ان كان بهذه لبعض شذاذ الفلاسفة فهو ليس المذهب السائد عند جماهير المؤمنين . فالمؤمن بالله تعالى ليس مثاليا بهذا المعنى بل هو واقعى يؤمن بأن الاشياء لا تعتمد كلها في وجودها على كونها مدركة لعقل من العقول .

الاساس الثانى

أزلية المادة

ان تطور - أو بالأحرى تقهر - فكرة أزلية المادة من أطرف ما يقرأ الانسان في دحض الادعاء بأن العلم التجريبي يسند قضية الاتحاد اذ الواقع عكس ذلك تماما فتطور هذا العلم يؤازر قضية الايمان ويضعف بل يقوض أهم الأسس التى يقوم عليها الاتحاد وهو الزعم بأن المادة أزلية لا بداية لها ، أبدية لا فناء لها . ولكن ما هى هذه المادة الأزلية ؟

ظل الماديون طوال القرون في أمر مختلف بالنسبة لأزلية المادة .

فقد ظنوها بادىء الامر هذه النجوم والكواكب الضخمة التى يشاهدون ، والتى يخيل لمخلوق ضعيف معدود الايام كالانسان أنها أزلية ، لانها فيما يظن بقيت على حالها التى عرفها أبائهم وأجدادهم ، وكل البشر قبله فما المانع اذن من أن كانت على هذه الحال منذ الازل ؟ وما المانع من أن تظل هكذا الى الابد ؟ واذا كانت أزلية فانها لا تحتاج الى خالق وهذا ما عناه الفلاسفة القدماء من أمثال أرسطو حين قالوا بقدم العالم . واذا كان الفلاسفة قد قالوا بقدم هذه الاجرام السماوية فان آخرين - منهم البابليون الذين جادلهم سيدنا ابراهيم - قد قالوا بألوهيتها وعبدوها .

وقد كان المفكرون المتدينون فيما مضى يجهدون أنفسهم في استخراج الدالة العقلية على بطلان هذه الفكرة من ذلك قول الفزائى في تهافت الفلاسفة (تحقيق سليمان دنيا ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م ، ص ١١٢) :

« ما تمسك به جالينوس اذ قال لو كانت الشمس مثلا تقبل الانعدام لظهر فيها ذبول في مدة مديدة ، والارصاد الدالة على مقدارها منذ آلاف السنين لا تدل الا على هذا المقدار ، فلما لم تدبّل في هذه الآماد الطويلة دل على أنها لا تفسد . » الاعتراض عليه من وجوه :

الاول - أن شكل هذا الدليل أن يقال ان كانت الشمس تفسد ، فلا بد أن يلحقها ذبول ، لكن التالي محال - وهذا قياس يسمى عندهم الشرطي المتصل - وهذه النتيجة غير لازمة ، لان المقدم غير صحيح ولا نسلم له أنه لا يفسد الشيء الا بالذبول فالذبول هو أحد وجوه الفساد ولا يبعد أن يفسد الشيء بفترة وهو على حال كماله .

الثاني - أنه لو سلم له هذا ، وأنه لا فساد الا بالذبول . فمن أين عرف أنه لا يعترىها الذبول ؟ أما التفاته الى الارصاد فمحال ، لانها لا تعرف مقاديرها الا بالتقريب ، والشمس التي يقال أنها كالارض مائة وسبعين مرة أو ما يقرب منه (*) ، لو نقص منها مقدار جبال مثلا ، لكان لا يتبين للحس ، فلعلها في الذبول والى الآن قد نقصت مقدار جبال فاكثر والحس لا يقدر على أن يدرك ذلك لان تقديره في علم « المناظر » لا يعرف الا بالتقريب .

وهذا كما أن الياقوت والذهب مركبان من العناصر عندهم وهي قابلة للفساد ، ثم لو وضعت ياقوتة مائة سنة ، لم يكن نقصانها محسوسا . فلعل نسبة ما ينقص من الشمس في مدة تاريخ الارصاد كنسبة ما ينقص من الياقوتة في مائة سنة ، وذلك لا نظير للحس فدل أن دليله في غاية الفساد .

وهذا الذي ذكره الغزالي احتمالا قد أثبتته العلم الآن يقينا ، فمن المسلم به الآن أن الاشعاع الصادر عن الشمس من كتلتها وإن كان القدر الذي ينقصه ضئيل جدا « تحويل ١ ٪ من كتلة الشمس من الهايدروجين الى الهيليوم يمدّها بطاقة تكفي لبقائها مضيئة لمدة ١٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠ سنة » (دائرة المعارف البريطانية طبعة ١٩٦٣) .

واذا كانت كل هذه الاجرام الكبيرة من شمس وقمر وأرض وسائر النجوم والكواكب ليست ازلية بل أن لها تاريخا - ولها بالضرورة نهاية فما هو الأزل اذن ؟

أحوال العناصر التي تتكون منها هذه الاجسام من ذهب وحديد وهايدروجين وهيليوم . . . الخ ؟ ربما كان هذا هو المظنون بادى الامر ولفظه عنصر

* الذي يقوله العلماء الآن : ان كتلة الشمس قدر كتلة الارض (٣٣٣.٠٠٠ مرة) وان قطرها قدر قطر الارض (١٠٩) مرات .

تشير الى هذا المعنى . ولكن العلم في تطوره اكتشف أن هذه العناصر هي بدورها مركبة من جزيئات وأن الجزيئات مركبة من ذرات .

فهل الأزل هو هذه الذرات ؟ هكذا ظن العلماء الى مابعد زمان نيوتن بسنين ، فالذرة كانت تسمى بالجزء الذي لا يتجزأ وكان المظنون أنها جسم صغير مستدير مصمت لا فجوات فيه فلا أجزاء له .

ولكن العلم أبطل هذا الظن أيضا فقد تبين أن الذرة نفسها مركبة من أجزاء أخرى عرفنا منها أولا الالكترون والنيوترون والبروتون ثم تبين أن ما تحت الذرة من أجزاء أكثر من هذا بكثير فقد وصل تعدادها حتى الآن الى ما بعد المائة بقليل .

قد يقول قائل واذن فقد وصلنا أخيرا الى المادة الازلية ، الى الجزء الذي لا يتجزأ أنه هذه الاجزاء التي تكون الذرة .

والرد على هذا من ناحيتين :

أولهما : أنه قول بغير علم اذ ليس في أجزاء الذرة ما يستدل به على أزليتها بل ان بعض العلماء يعتقد أنها هي الاخرى مركبة وهم يبحثون عن مكوناتها .

ثانيا : اذا كان الشيء أزليا لا بداية له فهو بالضرورة مستغن عن غيره . أعني أنه لا يعتمد في وجوده ولا استمرار وجوده على غيره . واذا كان الشيء قائما بنفسه مستغنيا في وجوده عن غيره فإنه لا يفنى ولا يتغير ولا يتبدل .

لماذا ؟

لكي نجيب على هذا السؤال يحسن أن نسأل سؤالا آخر هو متى يفنى الشيء وينتهي من الوجود ؟

خذ مثلا عود ثقاب وأشعله . انه يستمر مشتعلا لمدة ثوان ثم ينتهي . فلماذا انتهى ؟ انتهى اما لان العود الذي كان يمدد بالوقود قد احترق كله واما لان الاكسيجين قد انتهى واما لان أحدا نفخه نفخا شديدا فأبعد الشعلة عن العود واما ... واما ...

ملخص القول أن الشعلة انقضت حين تخلف شرط من شروط وجودها ، فالشعلة لا تستمر متقدة الا اذا وجدت وقودا فالوقود اذن شرط ضروري لوجودها ولا تستمر الا اذا وجدت الاكسيجين فهو اذن شرط ضروري لوجودها وهكذا .

نعود الى سؤالنا : متى يفنى الشيء ؟

والجواب الآن واضح أنه يفنى اذا تخلف شرط من شروط وجوده .

ولكن هذا يعنى أن الشيء الذى يفنى هو بالضرورة شيء يعتمد فى وجوده على غيره فهو اذن غير مستغن بنفسه . ولكننا قلنا ان الشيء الأزل من الضرورى أن يكون مستغنيا بنفسه واذن فكل شيء جاز عليه الفناء استحالت عليه الأزلية . واذن فاذا أردنا أن نختبر شيئا ما لنعرف ما اذا كان أزليا أم لا ، فما علينا الا أن نتساءل أهو شيء يمكن أن يفنى وينتضى . فاذا كان الجواب نعم فالنتيجة أنه غير أزلى .

والآن هل نعرف مادة معينة يصدق عليها القول بأنها لا تفنى ؟

لقد رأينا أن المادة فى شكل أجسام كبيرة وفى شكل عناصر وفى شكل جزيئات وذرات قابلة للفناء بل انها لتفنى فعلا واستدللنا بذلك على أنها لا يمكن أن تكون أزلية .

ولكن ماذا نقول عن أجزاء الذرة ؟

ان العلم كما قلنا لم يثبت بعد أن لها مكونات ولكنه أثبت ما هو بالنسبة لموضوعنا أهم من ذلك . لقد أثبت أن هذه الاجزاء قابلة لان تتحول الى طاقة وأن الطاقة نفسها قابلة لان تتحول الى مادة . ولكن قابلية التحول هذه تعنى أن بقاءها فى هيئتها المعينة كان معتمدا على ظروف خارجة عن ذاتها فلما زالت تلك الظروف زالت تلك الهيئة واذن فهى ليست معتمدة فى وجودها على نفسها واذن فقد استحالت أن تكون أزلية .

واذن فالمادة فى كل شكل من أشكالها المعينة قابلة للفناء فهى اذن حادثة .

واذن فالمادة تستحدث وتنفى ...

ولكن هذه النتيجة تخالف تلك الكلمة التى حفظها الطلاب منذ المرحلة الثانوية وصورت لهم على أنها الدعامة التى يقوم عليها البناء العلمى كله ، بل على أنها هى نفسها حقيقة علمية لا شك فيها ، أعنى قولهم المادة لا تستحدث ولا تنفى .

ان كثيرا من الاساتذة يرددون هذه العبارة تقليدا وعن حسن نية ولا يعرفون أنها اذا صحت تهدم الاساس الذى يقوم عليه الدين كله وتعتبر أكبر نصر للفكر المادى . والطلاب بدورهم يحفظون العبارة ويرددونها ولا يفكرون فى نتائجها الخطيرة .

ما معنى هذه العبارة ؟

اذا كانت المادة لا تستحدث فمعنى ذلك أنه لم يحدثها - لم يخلقها - احد . أى أن الله لم يخلقها . ولكن هذا يتناقض مع ايماننا بأن « الله خالق كل شيء » ، واذا كانت لا تنفى فمعنى ذلك أن أحدا لا يستطيع

أفناءها وهذا يعنى أن الله تعالى لا يقدر على إفنائها فكيف نوفق بين هذا وبين إيماننا بأن الله على كل شيء قدير وأنه لا يعجزه شيء ؟

المسألة اذن واضحة فاما أن تكون هذه العبارة المشهورة صحيحة فيكون الدين باطلا واما أن يكون الدين صحيحا فتكون هي باطلة ولا يمكن الجمع بين الايمان بصوابها وبصواب القول بأن للكون خالقا .

ولكن الذى لا شك فيه أن العبارة غير صحيحة وأن العلم لا يحتاج اليها وأنها ليست من نتائجها ولا قواعده وانما هي عقيدة فلسفية يونانية تزيت بزى العلم وجازت على كثير من الناس واليك بيان هذا كله :

١ - أما أن العبارة غير صحيحة فهو أمر قد فرغنا منه من قبل حيث أثبتنا أن المادة في كل شكل من أشكالها المعينة التى يمكن أن تشير اليها - ليست أزلية بل هي قابلة للتحلل أو التحول الى مواد أو طاقات أخرى . وكل مايتحلل أو يتحول فليس بأزلي غير حادث بل هو بالضرورة حادث . واذن فالمادة المعينة حادثة فانية .

لقد كررت عبارة المعينة لأميز بين المادة التى نشاهدها أو نعرف آثارها ونتعامل معها فى حياتنا اليومية أو فى مجالاتنا العلمية والمادة الفلسفية الذهنية التى لا وجود واقعي لها . وكثيرا ما يخلط طلاب العلوم بل وكبار العلماء بين المادتين فيتحدثون عن المادة الذهنية الفلسفية فى الوقت الذى يريدون الحديث عن المادة الواقعية .

اذا قلت لانسان له المام بعلم الكيمياء أو الفيزياء أن المادة تفنى وضربت له مثلا على ذلك بموته هو مثلا أجابك على الفور اننى لم أفن وانما تحولت الى مواد أخرى ، فاذا قلت له ولكن هذه المواد الاخرى أيضا تفنى قال محتجبا ولكنها هي بدورها تتحول الى مواد أخرى . فاذا استمررت قائلا وهذه بدورها تفنى وما تتحول اليه يفنى ظل مصرا على رأيه بأن هنالك وراء كل هذا مادة لا تفنى ، فاذا قلت له وما هي ؟ لم يستطع أن يجيبك لانه فى الحقيقة لا يتحدث عن مادة واقعية وانما يتحدث عن مادة ذهنية فلسفية ، ولكي يتضح لك هذا أضرب لك مثالين فقط :

أولا : هب أنه مات لامرأة طفلها العزيز فهل يعزبها أن تقول لها أن ابنك لم ينته ولم يفن وانما تحول الى مادة أخرى ؟ بالطبع لا . لماذا ؟ لان الذى فقدته وأسيت على فقدته هو مادة فى صورة معينة وخصائص معينة ومما لا شك فيه أن هذه المادة اذا افترضنا جدلا أن الانسان مادة فحسب قد فنيته وانتهت . وما يقال عن الانسان يقال عن كل مادة معينة أخرى فكل مادة فى شكل معين لها خصائص تعرف بها فاذا تحللت أو تحولت زالت هذه الخصائص فزالت بزوالها تلك المادة التى كنا نعرفها ؟ واذن فكل مادة ذات خصائص وصفات معروفة فهي قابلة كما تدلنا التجارب

العلمية على التحلل أو التحول . فما هي المادة الأزلية إذن ؟ انها المادة التي لا خصائص ولا صفات لها ولكن هذه مادة موجودة في الإذهان ولا وجود لها في الاعيان ونحن في حياتنا اليومية والعلمية انما نتعامل مع مادة عينية لا مادة ذهنية .

ولكى يصير الامر أكثر وضوحا فهب أنه لا وجود للمادة الا في ثلاثة اشكال فقط هي ١م ، ٢م ، ٣م ، وأن كل واحد من هذه قابل لان يتحول الى الآخر فاذا انتهى ١م صار ٢م أو ٢م اذا انتهى ٢م صار ١م الخ فما هي المادة الأزلية ؟ انها ليست ١م وليست ٢م لان ٢م قابل لاي يصير ١م وليست ٣م . وبما أن كل واحد منها قابل للتحول والفناء فكل واحد منها مستحدث .

واذا افترضنا أن فناء كل واحد منها انما يعني تحوله الى أحد الاشكال الأخرى فكل ما نستطيع أن نقوله أنه لن يزال في الوجود ١م أو ٢م أو ٣م وأن هذه الثلاثة لا تفنى كلها جميعا . ولكن هذا نفسه يعني وبالضرورة أنها تعتمد في وجودها على غيرها لان تحولها من شكل الى آخر يدل على أنها ليست مستغنية بنفسها بل معتمدة على غيرها .

٢ - اذا أحرقت رطلا من الورق ثم وزنت رماده فوجدته أوقيتين فقط فاین تكون ذهبت العشر أوقيت ؟ ان الرجل الذي لامعرفة له بالكيمياء أو الفيزياء قد يظن أن كمية المادة الموجودة في العالم نقصت بمقدار عشر أوقيت . ولكن آلاف التجارب التي نجريها تثبت أن هذا الظن غير صحيح لاننا اذا جمعنا كل المواد التي تحلل اليها الورق المحترق ووزناها في نفس المكان الذي وزنا فيه الورق كان الوزن رطلا كاملا ، واذا حللنا تلك المواد الى أخرى واستظمنا أن نجتمعها ونزنها في نفس المكان كان وزنها أيضا رطلا كاملا . وهذا هو الذي دعا العلماء الى افتراض أن كمية المادة الموجودة في العالم ثابتة .

وعبارة « المادة لا تستحدث ولا تفنى » المقصود منها أن تعبر عن هذا المبدأ ولكنها كما ترى لا تقتصر على تقريره وانما تقول أكثر منه بكثير . وهذه الزيادة التي تقررها العبارة لا يحتاج اليها العلم وهي التي تخالف الدين . فهي لا تقتصر على القول بأن كمية المادة ثابتة ولكنها تقول أن هذا الثابت هو مادة أزلية لم تخلق ولا تفنى والفرق بين الاثنين كبير كما أن من الواضح أن أولاهما لا تستلزم الثانية .

يقول الاستاذ أنتوني كوينتون Antony Quinton ناقدا هذه العبارة ، الحقيقة أن مبدأ ثبات كمية المادة لا يتضمن القول بمذهب ذري متكامل لأشياء أزلية . ان حسابا جاريا بالمصرف قد يبقى كما هو لا يتغير اذا كانت كل المسحوبات تعوض حالا بايداعات ، وحجم الماء بالصهرج قد

يظل كما هو اذا كان الماء المصبوب فيه من جانب مساويا للماء الخارج عنه من الجانب الآخر . وقد أوضحت هذا بعض التأملات الكونية الحديثة منظرية الخلق المستمر تقول أنه بالرغم من أن الطاقة تقنى بالفعل في عمليات التحولات الذرية تحت درجات الحرارة الهائلة فان هذا النقص يعوض بخلق طاقة جديدة في مكان آخر ، (١) .

الأساس الثالث :

(١) هذا الاساس مبني على مفهوم للمادة مضى عليه الزمن وهي كونها مركبة في النهاية من ذرات .

(٢) لقد أثبتنا أن المادة يستحيل أن تكون أزلية في أية صورة معينة من صورها .

(٣) هذه النظرية هي مجرد افتراض وتخمين لا يسنده علم ولا برهان فكيف يبنى عليها الانسان تصوره للكون وفلسفة حياته ؟ ان كثيرا من الماديين يتبجحون بالعلمية ويتناولون على المزمين مطالبين اياهم باقامة الدليل على وجود الخالق زاعمين أن الذي يمتنعهم من الايمان به هو عدم هذا البرهان ، ولكنهم ينسون أن فلسفتهم المادية كلها قائمة على افتراضات هي مجرد خيالات وتخمينات لا دليل على صدقها بل كل الدلائل تشير الى بطلانها .

(٤) ولنحاول أن نساير الماديين في افتراضاتهم الخاطئة فن تصور معهم كيف تكونت هذه الاشياء التي نراها ؟ كانت هنالك ذرات سابحة في الفضاء - ذرات أزلية لم يخلقها اله ولم يحركها محرك . ذرة فيها هائمة على وجهها لا تسير الى غاية مقصودة ولكنها في هيامها هذا تلتقي بذرة أخرى ومن هذا اللقاء تتكون جزئيات Molecules ومن الجزئيات تتكون عناصر وهكذا الى أن نصل الى طور هذه الكائنات التي نشاهدها الآن ...

من الاعتراضات المعروفة على هذا الرأي أن تكوين كائن كالانسان من تلك الذرات بالمصادفة أبعد احتمالا من قرد يخط على آلة كاتبة فيخرج لنا بالمصادفة معلقة امرئ القيس مثلا .

ومن الاعتراضات أيضا أن المصادفة وحدها ولا سيما في مثل هذه الحال - لا تجدى ، بل لابد من أن يكون وراءها تصميم . هب أن لديك عددا كبيرا من اللبن بدأت ترمى به على غير هدى فتكونت منه بالمصادفة حجرة . فالحجرة هنا جاءت من اجتماع اللبن بالمصادفة ولو كان الذي

1) The nature of things, Routledge & Keyan Paul, London, p. 82

نلقى به بيضا مثلا لما تكونت منه حجرة ، وهكذا الحال مع تلك الذرات فان تكوين الكائنات منها بالمصادفة يقتضى أنها كانت مصممة بحيث اذا اجتمعت بهذه الطريقة تكون منها ذهب والفضة اجتمعت بتلك الطريقة يتكون منها ماء وهكذا واذن فالمصادفة وحدها لا تحل الاشكال لانها لا تقضى عن التصميم .

واذا كانت هذه النتيجة لازمة لكل من يقول بتكوين الكائنات من ذرات فانها الزم ما تكون للنزى يقول كما يقول بعض الماديين أن خصائص الكائنات ان هي الا خصائص مكوناتها الأولية بلا زيادة ولا نقصان .

الأساس الرابع :

ما قلناه فى نقض الاسس الثلاثة السابقة يكفى لنقض هذا الاساس الرابع وذلك أنه اذا ثبت أن المادة ليست أزلية أو ثبت بالبرهان العقلى القاطع - وهو ثابت - أن للكون خالقا واحدا متصفا بالصفات الواردة فى القرآن الكريم ، وثبت صدق دعوى الانبياء فى تكليم هذا الخالق لهم ووحية الرسالات اليهم ، وجاء فى هذه الرسالات الخبر عنه تعالى بوجود موجودات ذات طبائع غير التى نعرفها فى عالمنا المشهود هذا ، فلا مجال لنا الا الايمان بوجودها .

وهنا مسألة ينبغى التنبيه اليها فمن المقطوع به أن الله تعالى ليس موجودا ماديا لانه تعالى « ليس كمثله شئ » ولكن عدم الماثلة هذه من خصائصه سبحانه وتعالى وحده ، وكل ما عداه فهو يماثل غيره فى شئ وان خالفه فى أشياء . ولم يرد فى القرآن الكريم ولا فى السنة عبارة أن الملائكة أو الجن مخلوقات غير مادية . فكل ما نعرفه عن ذواتها ، أن الملائكة مخلوقة من نور والشياطين من نار كما أن الانسان من طين فاذا أجرينا الفاظ النور والنار على ظواهرها ، فهم فى عرف العلم الحديث أشياء مادية . وليس بكثير على الاله الذى خلق من الطين والماء المهيمن انسانا يسمع ويبصر ويريد ويعقل ، أن يخلق من النور ملائكة أو من النار جنا فكونها ليست كالمخلوقات التى نشاهدها وكونها لا تدرك فى صورها الاصلية بحواسنا العادية ، كل هذا لا ينتج عنه بالضرورة أن العنصر الذى تتكون منه شئ مخالف تماما للمادة التى تتكون منها المخلوقات التى ألفناها واذن فحتى لو كانت الملائكة وكان الجن مخلوقات مادية فانها مخلوقات غير مرئية ولا تناقض فى هذا فقد مضى الوقت الذى كان يقال فيه أن المادى هو الذى تدركه الحواس ادراكا مباشرا .

الأساس الخامس :

ان المذهب المادى باختلاف صوره ليس مذهبا أصيلا أدى اليه علم او أئسته نظر ، اما هو مجرد رد فعل ضد الدين وتعريفات كثير من

الفلاسفة الماديين ومفاهيمهم المقصود الأول منها هو اسقاط الدين من الحساب وبيان أنه لا محل له في مجال العلم . ومما يظهر هذا . . حماسهم الشديد في انكار البعث وهو انكار لا تستلزمه - فيما أرى - حتى فلسفتهم المادية نفسها .

وذلك أن هذه الفلسفة لها نظرية في الخلق الأول ، والبعث انما هو خلق ثان . . فلماذا يكون الاول ممكنا والثاني محالا ؟ اذا كان الانسان قد خلق بزعمهم من تلك الذرات مصادفة فما الذى يمنع أن يخلق مرة ثانية مصادفة ؟ لو كان الماديون أصلاء في تفكيرهم لقادهم منطقهم الى هذه النتيجة ولقالوا ان البعث ليس محالا وليس أبعد احتمالا من الخلق الأول ولكننا لا ندري أكائن هو أم لا .

الأساس السادس :

طبيعة كل شيء وخصائصه ان هي الا المادة المكونة له

أ - هذا القول يفترض أن المادة مكونة من ذرات أزلية لا تتجزأ وهو مفهوم قديم . فالعلم الحديث كما قلنا لا يعرف مادة بهذه الصفة ولا يضع حدا فاصلا بين المادة والطاقة .

ب - ان « العمارة » مكونة من حجارة ولكن لا يمكن ارجاع خصائص « العمارة » كلها الى الحجارة المكونة لها فتتنظيم هذه الحجارة بطريقة معينة يعطى العمارة خصائص لا نجدها في مجموعة حجارتها . كذلك الاشياء لو افترضناها كلها مكونة من ذرات لا تتجزأ فهي ليست مجرد آكوام - مختلفة الاحجام - من الذرات . ولكنها ذرات مختلفة التنظيم والتكوين وهذا التنظيم لا تقل أهميته في اعطاء الشيء خواصه عن أهمية المادة التي يتكون منها .

ج - وبالإضافة الى التنظيم فهناك العلاقات الناشئة بين الاشياء المكونة وهي يحكم كونها علاقات بين أشياء فلا يمكن أن توجد في الشيء الواحد . وأظهر مثال لذلك هو مثال الساعة ، فخصائص الساعة لا يمكن ردها كلها الى خصائص الاجزاء المكونة لها . وما يقال عن الساعة يقال عن سائر « الماكينات » وعن الاحياء من باب أولى .

نخلص من هذا كله الى أن الشيء المكون يكتسب صفات جديدة حين ينضم الى غيره ، واذن فخصائص الكل المكون لا يمكن ارجاعها كلها الى مجموعة خصائص الاشياء المكونة له في حالة انفرادها .

الأساس السابع :

كل ما نسميه عقلا أو نفسا أو روحا أو فكرا إنما هو شكل من أشكال المادة

إذا كان المقصود بهذا أن العقل والنفس والروح والفكر أشياء مادية محبوسة أو معلومة القدر والعدد فهو بالطبع غير صحيح .

وإذا كان المقصود أن هذه الظواهر متصلة بأشياء مادية كالكائنات الحية فهو بالطبع صحيح ولكنه لا يخدم للماديين قضية . وإذا كان المقصود أن هذه الأشياء كلها لا توجد إلا متصلة بهذه الكائنات المادية بالطريقة التي نعدّها فهو قول بغير علم .

ثم ماذا يعنى أن نقول أن العقل مثلا شكل من أشكال المادة مادامت المادة نفسها لم تعد « مادية » بالطريقة الغليظة التي كان يتصورها غلاة الماديين ؟

الأساس الثامن :

تشكيلات المادة وحركاتها خاضعة كلها للقوانين الطبيعية لا تختلف ، وبها يمكن أن نفسر كل الظواهر الطبيعية ، والحالات النفسية ، والحوادث التاريخية ، من غير حاجة إلى افتراض قوة وراء الكون تحفظه وتسيّره .

١ - لقد أثبتنا من قبل أن الإيمان بالخالق أمر يستلزمه طبيعة المادة نفسها إذ ما دامت المادة حادثة ويستحيل أن تكون أزلية كما أثبتنا فلا بد لها من خالق أزلي غير حادث .

٢ - وإذا ثبت وجود هذا الخالق فإن ما يسمى بالقوانين الطبيعية التي تحكم سير الكون إنما هو عادة هذا الخالق أو سنته في تصريف شئون خلقه .

٣ - وإذا كانت القوانين إنما هي سنن الله تعالى فإن إطرادها إنما يدل على أن الله تعالى لا يغير من عادته هذه ، وتخلّفها أحيانا أما أن يدل على أن السنة التي عرفناها ليست هي السنة المهيمنة بل فوقها سنن تحكمها ، وأما أن يدل على أن أحد شروط تلك السنة قد تختلف وكل هذا يجعل الباب مفتوحا لأن تحدث الحوادث بغير الطريقة التي عهدناها والتي - لذلك - نتوقعها ونستغرب غيرها . ولكن حدوث مثل هذه « الحوادث » إنما هو خرق للعادة التي عرفناها ولا دليل فيه على أن الكون يسر بلا انتظام ولا اتساق .

الأساس التاسع :

المادية مذهب علمي :

من الحيل المعروفة على مدى التاريخ أن المدافعين عن المذاهب الباطلة والافعال الفاسدة والسلع الضارة لا يسمون أشياءهم بمسمياتها بل يلبسونها زورا ازياء زاهية جذابة . ولما كان العلم الطبيعي سلعة رائجة في زماننا فان كل صاحب مذهب باطل يحاول أن يلتجئ اليه ويلوذ بحماه ولكن هيهات . فالمادية كما قدمنا مذهب تقوم قاعدته الاولى على مجرد الدعوى التي لا يسندها دليل بل التي يبطلها الدليل ، فأين العلم من هذا ؟ والمادية كما أوضحنا مذهب يسير العلم في خط مضاد له ، فالعلم هو الذي ما فتئ يبطل تعريفاتهم للمادة حتى ما يستطيعون أن يقولوا ما هي هذه المادة التي يريدون لها الاستغناء عن الخالق الذي جاءت بالدعوة الى الايمان به رسل الله تعالى ، والعلم هو الذي هدم دعواهم بأزلية الاجرام السماوية ثم بأزلية الجزء الذي لا يتجزأ ، والعلم هو الذي اقترب من المنهج الديني حين اتخذ الاثر دليلا على طبيعة المؤثر ، ولم يشترط رؤية الاخير رؤية مباشرة . والعلم هو الذي يتجه الآن لتفسير ظواهر طبيعية وقوى بشرية لا تقع تحت نطاق ما عرف من قوانين الطبيعة الحسية .

الأساس العاشر :

الانسان سيد نفسه ومالك مصيره فهو وحده المسئول عن أن يشرع لنفسه في السياسة والاقتصاد والاجتماع وسائر نواحي حياته :

هذا كلام لا يصح اطلاقه حتى على افتراض أن الانسان لا خالق له فكيف وقد ثبت أن له خالقا ؟

وهو لا يصح على ذلك الافتراض لان الواقع الذي يحسه كل فرد منا أنه رغم قوى الانسان العقلية الفائقة ورغم اطراد تقدمه العلمي واتساع فهمه للكون الذي يعيش فيه فانه ما زال محكوما في الجزء الاكبر من حياته بعوامل خارجة عن ذاته . فلا أحد منا كان مختارا في أن يجيء الى هذا الكون ، ولا أحد منا يدرى متى يفارقه ، ونحن نجئ اليه بتكوين طبيعي لم نصنعه ولا قدرة لنا على تغييره ، وهذا التكوين الطبيعي يفرض علينا نظاما معيناً للحياة فلا بد من أكل وشرب ونوم وبقظة وعمل الخ . ونحن لا نجئ الى الكون مكتفين ذاتيا بل ان متطلبات حياتنا خارجة عن ذاتنا وليست بخاضعة لقوانا وارادتنا .

تلك بدائة ما ينكرها عاقل فما ينبغي له اذن أن يقول أنه سيد نفسه ومالك مصيره .

ثم ان تجربة الانسان الذى افترض أنه سيد نفسه وذو هبة يضع لنفسه منهاج حياته ويخطط مسار سلوكه تجربة مؤسفة باعتراف أصحابها الذين ذاقوا ويلاتها . أفلا يكفى هذا دليلا على بطلان الافتراض الذى قامت عليه ؟

المادية مذهب الحادى فماذا يقدم الحاد للانسان ؟ انه يقول له انك جئت من لا شىء ، وان كنت جئت من شىء فقد جئت مصادفة . فليس لوجودك غاية . ولا لك فى الحياة مهمة ، وانك صائر الى لا شىء ، فما بعد الموت من حياة .

والاحاد بهذه العقائد السلبية يزيح عن قدمى الانسان الارضية التى تقوم عليها حياته كلها .

فالانسان بطبعه مخلوق ذو غاية وهدف لا يكاد يعمل عملا لا يعرف الغرض منه والغاية من ورائه ، والاحاد يقول له ولكن الواقع أن حياتك فى مجملها لا هدف لها .

والانسان مفطور على حب الخير وكراهية الشر وعلى جزاء الاحسان بالاحسان ، ولكن الاحاد يقول له أن مصير المحسنين والمسيئين فى النهاية واحد ، فيخلق فى نفسه صراعا بين نزوعه الطبيعى نحو فعل الخيرات وعبت هذا الفعل الذى يقتضيه استواء مصير المحسنين والمسيئين .

والانسان بطبعه مخلوق ضعيف لا تكاد حياته تسلم من داء مؤلم أو عدو مؤذ أو عيش ضنك أو فراق صديق عزيز أو قريب حميم وهو فى حالات ضعفه هذه كلها بحاجة الى ملجأ يلوذ به ويعتمد عليه وينشد عنده العزاء والسلوان . ولكن الاحاد يقول له : الواقع أنك تقف وحدك لا خالق لك تعتمد عليه وتصدق الملجأ اليه .

وحين يسحب الاحاد من تحت أقدام الانسان هذه الارضية فانه يجعل حياته تعيسة ويمزق ذاته شر ممزق ، فلا غرو أن يحاول الهروب من نفسه بالمسكرات والمخدرات والملهيات المزعجات ، ولا غرو أن يهرب من بنى جنسه فيعيش وحده ذرة تائهة بين ذرات ، ولا غرو أن تتفاقم لهذا كله مشاكله وأدواؤه النفسية .

ان الارتباط بين فلسفة العبث التى يقتضيها الاحاد وبين مشاكل الانسان المعاصر التى أشرنا الى طرف منها أصبح من المسلمات عند المفكرين الغربيين .

خاتمة :

وبعد .. فاذا كانت تلك هى الأسس التى تقوم عليها الفلسفة المادية وكانت هذه هى نتائجها على معتنقيها فما هو المسوغ لاستجلابها لنا والدعوة اليها بيننا ؟ ان اسانا عاقلا يعرف طبيعة تلك الأسس وآثارها لا يمكن أن يقدم على عمل كهذا . ولكن المشكلة أنه ما كل الناس يعقلون وما كل العقلاء يعلمون فاللهم عقلا هاديا وعلمنا نافعا .